طرائف من العصر المملوكى

للأستاذ محمود رزق سليم

تمهيد :

قيضت لى الظروف الاطلاع على كثير من تاريخ العصر المملوكى وأدبه ، واجتماعياته . واستخلصت من ذلك كله مؤلفة موسوعة تصدر تباعا فى أجزاء . وأحببت أن أعجل إلى قراء الرسالة الغراء ؛ فأعرض على أنظارهم صورا شتى لنواحى هذا العصر ، آملا أن يجدوا فيها الطرافة ، وأن يجدوا فى هـذه الطرافة شيئاً نافعا يجلى أمامهم وجه هذا العصر وخصائصه ، ويزيل عن حواشيه ما اكتنفها من ظلام .

وستكون هذه الطرائف خليطاً متنوعا ما بين تاريخية وأدبية واجتماعية ونحوها . وإلى القارىء لذة تاريخية سريعة تعرف بالعصر .

١ — التعريف بالعصر

العصر المملوكى فترة من فترات التاريخ المصرى الطويل ، وحقبة من أحقابه الواسعة ، تحتجز منه زهاء ثلاثة قرون بين سنتى ٦٤٨هـ — ٩٢٣هـ . وبدأت بدءاً هيناليناً لا ضجة فيه ولا صخب إلا لماماً لمـــاما ، كما بدأت عصور قبله . ثم أخذ فيه الضجيج يشتد ، والعجيج يزداد ، وما زال حتى انتهى بأن هوت البلاد تحت أعباء حادث جلل وخطب عظيم .

قامت الدولة الأيوبية بمصر بزعامة مؤسسها صلاح الدين الأيوبى وما زالت تعالج الحروب الصليبية وغيرها ، حتى ملك البلاد الملك الصالح نجم الدين الأيوبى أحد ملوك هذه الدولة . فوقعت فى عهده إحدى المعارك الحاسمة فى تلك الحروب وهى معركة « المنصورة » التى أسر فيها ملك فرنسا « لويس التاسع » . وكان الصالح نجم الدين قد استكثر من شراء المماليك من الأتراك ، وربأهم ، وابتنى لهم قلعة بجزيرة الروضة ، واتخذ منهم حاشية وحرساً وجندا ، ووجد فيهم وفاء وولاء ، كما وجـــد فيهم شجاعة وبلاء ، فى حوادثه المختلفة ...

مات الصالح نجم الدين ، والمعركة فى إبانها وريعانها . فكتمت زوجته « شجرة الدر » خبر وفاته ، لتحفظ على جيشه معنويته ، ريثما يعود ابنه « توران شاه » ويتسلم مقاليد الأمور .

عاد توران شاه ، فلم يستطع أن يستصفى زوجة أبيه « شجرة الدر » ولا أن يستخلص مماليك أبيه . فانتهى النزاع بينهما بأن قتلوه قتلة شنيعة .

حينذاك نصب الأمراء من المماليك « شجرة الدر » ملكة على البلاد ...

« وشجرة » الدر تعتبر — من ناحية — بقية من بقايا الأيوبيين ، فوجودها على العرش امتداد لوجودهم . ولكنها — من ناحية أخرى — كانت جارية من جوارى الملك الصالح ، وليست أيوبية من نسل الأيوبيين ، فوجودها على العرش يعتبر بدءاً للعصر المملوكى ، أو هو على الأقل إرهاص ببدئه .

قيل إن خليفة بغداد — إذ ذاك — المستعصم بالله العباسى أرسل إلى رجال مصر يعيرهم بها ، ويوبخهم لأنهم ولوا عليهم امرأة . فخشيت « شجرة الدر » منبة الأمر ، وأخذ مركزها يتحرج ، وخشيت كذلك أن تتحرك أطماع الطامعين من بقايا الأيوبيين . فأرادت أن تتلافى الأمر ، وأن تحتمى هى وعرشها برجل صنيعة لها ، يكون له من الملك اسمه وشكله ، ويكون لها منه النفوذ والسلطان .

اختارت « شجرة الدر » لذلك مملوك زوجها وهو « أيبك الجاشنكير » وكان حينذاك أحد أمراء دولتها الكبار . فتزوجته وتنازلت له عن العرش ، فارتقاه ملكا ، وبقيت هى بجواره لها الأمر والنهى والحول والطول . وتلقب بالملك المعز ، وكان أول ملوك هذه الدولة .

تسنم الملك المعز عرشه فى غير كثير من الجلبة والضوضاء — كما أشرنا — وبذلك انتقل الملك من دولة إلى دولة ، وبذلك أيضاً بدأت دولة الأرقاء .

ودرج الأمراء فيها على أن يعقدوا مجالس للشورى عند خلو العرش ، ليختاروا من بينهم أميراً يجلس عليه . فإذا تم الأمر لأحدهم كان إليه وحده الحكم والسلطان .

أما هؤلاء الأمراء فهم من المماليك المعتقين الذين وصلوا بذكائهم وبلائهم إلى هذه المرتبة . ولهم وحدهم حق اختيار سلطان

البلاد . لهذا كانت طريقة الحكم فى الدولة نمطا فريداً بين طرق الحكم المعروفة .

وقد عاشت هذه الدولة زهاء قرون ثلاثة — كما أشرنا — ويقسمها بعض المؤرخين إلى دولتين . البحرية والبرجية ، أو التركية والجركسية . وملوك الدولة البحرية من المماليك الأتراك ، وملوك الدولة البرجية من المماليك الجراكسة . ومؤسس الأولى الملك العز « أيبك الجاشنكير » ، ومؤسس الثانية الملك الظاهر « برقوق ابن آنص » .

واتخذت كلتا الدولتين جنودها من المماليك ، إذ عنى الملوك والأمراء معاً بجلبهم وشرائهم من الأسواق الخارجية ، كما عنوا بتنشئتهم تنشئة عسكرية ، واتخذوا منهم بطانة وحرسا . ووكلوا إلى النابهين منهم — بعد عتقهم — مناصب الدولة . وكانت كلها مناصب عسكرية إذا استثنينا منها مناصب القضاء والكتابة وما إليها وتكون من هؤلاء الجنود والأمراء ومن السلطان ، الطبقة الحاكمة فى البلاد ، التى لها دون سواها من نابتة البلاد ، حق الحكم وتصريف الأمور .

واشتهر من ملوك الدولة البحرية غير أيبك . قطز وبيبرس وقلاوون وابنه الناصر محمد . واشتهر من ملوك الدولة الجركسية غير برقوق . ابنه فرج وقايتباى والغورى والأشرف طومان باى .

ولكل من هؤلاء أعمال مجيدة نافعة ما بين حروب خارجية وإصلاحات داخلية . ويعتبر بعض المؤرخين ، هذا العصر امتداداً للعصر الأيوبى ؛ لأن الدولة فى أغلب نظمها نهجت نهج النظم الأيوبية . ولكن — دون شك ورغم هذا — كان للعصر خصائصه ومميزاته التى تفصله عما عداه .

وحقاً احتفظ سلاطين العصر بسلطتهم مستقلة مرفوعة اللواء عزيزة الجانب تضم بين ممتلكاتها البلاد الشامية والحلبية والحجازية فى أكثر أيامها . غير أنها امتازت ببعث الخلافة العباسية فى القاهرة وتجديدها . بعد ما وئدت فى بغداد على يد التتار عام ٦٥٦هـ . فأصبحت القاهرة بذلك محوراً دينياً للمسلمين ، وفى ذلك كسب أدبى عظيم كان له أثره فى تثبيت ملك سلاطين مصر فى هذه الحقبة ، وإكسابهم الشرعية اللازمة ، لأنهم كانوا عليها دخلاء . كما كان له أثره فى تلك الحركة العلمية المباركة التى نشطت فى القاهرة والمدن المصرية والمدن التابعة لمصر ، طول العصر . وكان لها إنتاجها القيم فى ميدان العلوم والآداب الإسلامية والعربية ...

وكما امتازت سلطنة المماليك بإحياء الخلافة العباسية وبالنشاط العلمى ، امتازت بالنظام الرباعى فى القضاء ، إذ أصبح للبلاد أربعة قضاة ، من كل مذهب من المذاهب السنية قاضى قضاة .

وهكذا ترى أن للعصر المملوكى كثيراً من الخصائص والمميزات

ولا بد لنا من القول إن هذه الدولة كانت ثلاثة أعداء ألداء خارج حدودها ، وهم التتار والفرنجة والعثمانيون عدا الخارجين عليها من أتباعها أو عمالقيها . ونجحت فى درء خطرهم إلى حد كبير ، وسجلت فى سبيل الذود عن مصر وعن الإسلام صفحات خالدة .

غير أن الفتن الداخلية والأطماع غير المشروعة التى نبتت فى رءوس أمرائها كانت علة مزمنة من عللها ، ظلت مضاعفاتها تنهك قوتها وتخضد شوكتها ، حتى أخذت تقربها من نهايتها .

وقد كانت هذه النهاية على يد السلطان سليم ملك العثمانية الذى احتل البلاد عام ٩٢٣ هـ بعد حرب عنيفة طاحنة أبلى فيها الأشرفان الغورى وطومان باى البلاء الحسن . وهذا الاحتلال هو الحادث الجلل الذى أشرنا إليه .

هذه عجالة موجزة تعرف بالعصر . ونحاول فى المجالات القادمة أن نطرف القراء بما يجلى العصر ، ويكشف عن كثير من مميزاته وخصائصه .

محمود رزق سليم

مصلحة الجمارك المصرية

تطرح بالمناقصة العامة طبع وتوريد حوالى ٤٥٠ مليون طابع من بطاقات رسم الإنتاج على الكبريت وورق اللعب لازمة للسنة المالية ١٩٤٨/١٩٤٩ وقد تحدد ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٦ يناير سنة ١٩٤٨ آخر موعد لقبول العطاءات ويمكن الحصول على شروط المناقصة من الإدارة العامة بالأسكندرية مقابل دفع ١٣٠ مليما .

٨٤٦٣